وكان من نتيجة ذلك ان تجمع لدى العرب معلومات مختلفة عن الانواء ضاغوها بصورة سجع ادبي منها :

(اذا طلعت الجوزاء توقدت المعزاء وكنست الظباء وعرفت العلياء وطاب الخباء)

٣) التوزيع الجغرافي للاماكن :

جاء في الفكر الجغرافي العربي في هذه المرحلة التاكيد على توزيع الاماكن الجنوبية توزيعاً يقوم على التحديد الثابت الملتزم . وشمل ذلك التوزيع الجغرافي جوانب بشرية وطبيعية . فذكرت القبائل ومناطق سكناها والجبال والسهول والوديان ، والنبات الطبيعي ، واين يكثر واين يقل وربطوا بين العوامل المؤثرة بعضها في البعض الآخر .

٤) معرفة مصادر المياه :

نتيجة لطبيعة المناخ الذي يسود جزيرة العرب ، والذي امتاز بالجفاف والتقلب والتذبذب من سنة لاخرى فقد ظهرت الحاجة الى معرفة مصادر المياه الثابتة او العمل على خزنها من سنة لاخرى . وكان من نتيجة ذلك ان برزت في الفكر الجغرافي العربي في هذه المرحلة ظاهرة التحكم في مصادر المياه ، فكان ان انشئت السدود على الوديان حتى بلغ عدد تلك السدود اكثر من ٨٠ سداً وفي مقدمتها سد مأرب في اليمن والذي يمثل انجازه معرفة هندسية وطوبغرافية ومناخية وزراعية .

٥) الاهتمام بالجغرافية الفلكية :

كان للترحال العربي الدائم والذي فرضته بيئتهم ، الاثر في شحذ هممهم مبكراً لمراقبة التغيرات التي تطرأ على القبة السماوية ، وقد عرفوا الاهتداء بالنجوم ووقت طلوعها ومغيبها ، حتى استطاعوا توقيت ساعات الليل . وفي مقدمة الكواكب التي اهتموا بمراقبتها القمر لانهم يأنسون القمر ويجلسون فيه للسمر ويهديهم السبل في سرى الليل والسفر ويزيل عنهم وحشة الظلام . وهم في مراقبتهم لمسيرة القمر لاحظوا مبكراً علاقته بالمجموعة النجمية المتغيرة على التوالي ، وحددوا منازل القمر وجعلوها ثمانية وعشرين منزلاً اطلقوا عليها اسم منازل القمر واعطى لكل منها اسم عربي خالص ، والمتفحص في شعرهم وادبهم يرى هذه الاسماء في جميع اشعارهم القديمة .

وقبل الانتهاء من تلخيص الفصل الخاص بالفكر الجغرافي العربي قبل الاسلام لا بد من الاشارة الى حقيقة ثابتة من ان العرب في هذه المرحلة التاريخية التي سبقت ظهور الاسلام كانوا على درجة عالية من التحضر اذا ما قوزنوا ببقية مناطق العالم . فالحياة السياسية المستقرة الناضجة والتي وصلت الى مرحلة تأسيس الدولة (السبئية والمعينية والحميرية) تدل على نضوج فكري سياسي في وقت كان يسود معظم مناطق العالم التخلف والهمجية . وفي مجال الثقافة والادب فان أدب وشعر هذه المرحلة يأتي في مقدمة الادب العالمي وفي مجال الحياة الاقتصادية . كانت التجارة وطرقها المنتظمة والزراعة وسدودها القائمة تمثل طفرة تاريخية . كل ذلك يدل على ان الحياة الفكرية لهذه المرحلة كانت على درجة عالية من التقدم النسبي العالمي المقارن بمرحلتها .

العوامل التي اسهمت في تطوير الجغرافيا عند المسلمين :

1) فتوح المسلمين واتساع رقعة ديار الاسلام
2) فريضة الحج
3) نشر الدعوة الاسلامية حيث كان المسلمون هدفهم نشر الدعوة الاسلامية فقد توغلوا في افريقيا من اجل نشر الاسلام
4) حب الرحلات وهي طبيعة في العرب وورثوها وقد اشتهر الكثير من العرب الذين سجلوا كل مشاهداتهم في البلدان التي زاروها

المبحث الثالث

الفكر الجغرافي العربي الاسلامي

لقد برع العرب المسلمون في كافة العلوم في الفترة الممتدة منذ بداية الفترة ، الاسلامية وحتى سقوط الخلافة العباسية وكان لعلم الجغرافية اهتمام خاص من قبلهم ولقد صرفت جهود كبيرة ومتزايدة الى دراسة الفكر الجغرافي العربي وتطوره واعتاد كثير من كتاب الغرب ان يصفوا جهود المسلمين بأنها متألقة في مجالات عديدة من التخصصات الجغرافية سواء منها الرحلات أم الجغرافية الوصفية ، أم الاقليمية ، أم الفلكية أم الخرائط ، وفي مجال التقاويم الجغرافية .

وقد نتج ذلك بسبب ما يتمتع به العرب من أصالة في تفكيرهم وحضارتهم ، اضافة الى ما استوعبوه من معارف قديمة غربية وشرقية التي استخدموها في استحداث خطوات التقدم العلمي بصورة ملحوظة ، فما كانوا مجرد مقلدين منقادين تستعبدهم النماذج الاجنبية ، بلْ كانت لديهم خصائصهم من العزم والعقل والكفاية المتميزة مما أبرز الطابع الفريد لتلك الخصائص على كل ما تسلموه او استعاروه من الغير .

واستمرت جهود العرب في الابداع في مختلف فروع الجغرافية وخاصة في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي) الذي بلغ فيه الادب الجغرافي العربي أوجه في مجال تطوره الخلاق كحركة مستقلة قائمة بذاتها . وهو يذخر بمصنفات هامة في محيط الجغرافية الاقليمية ، غير ان الانتاج الجغرافي فيه لم يقف عند هذا الحد فقد تم في هذا القرن ايضاً تشكيل ما يسمى (بالمدرسة الكلاسيكية) للجغرافية العربية . كما شهد ايضاً ميلاد أكثر اثار الكارتوغرافيا العربية أصالة . وقد بلغ عدد الرحالة في هذا القرن حداً كبيراً[1] اذ اتيح للمسلمين ان يحوزوا قصب السبق في ميدان الرحلات والاكتشافات والدراسات الجغرافية . وافادت اوربا مما كان عند المسلمين من علم باجزاء العالم المعروفة في القرون الوسطى .

ولم يقف دور العرب عند تلك الحدود بل كانت لهم جهود واهتمامات كبيرة في الفلك وكتب الزيجيات ، التي تعنى في الجغرافية الجداول الفلكية والجغرافية الخاصة بخطوط الطول ودوائر العرض .

---

(١) كراتشكوفسكي ، تاريخ الادب الجغرافي العربي ، جـ ١ ص ١٧٧ .

* فكانت الاهتمامات الدينية والفلكية تجعل من المحتم على الفلكيين ان يختصوا بمسألة تحديد خطوط الطول ودوائر العرض الجغرافية لمختلف الاماكن بدقة . وقبل كل شيء استخدمت المعرفة الصحيحة بخطوط الطول في اقامة المزاول الشمسية الافقية (البسيطة) فكانت تزين الميادين الفسيحة حيث تقع المساجد في العادة (مثلما فعل اليوم بساحات المدن) وتوضع هذه المزاول الشمسية تبعاً لدائرة العرض في مكان معين(٢)

وعن تقدم العرب في مجال علم الفلك كتب أحد المستشرقين يقول « وعلم الفلك هو من اول ما اعتنى به في بغداد ، فقد اخذ خلفاء بني العباس ، منذ اتخاذهم بغداد عاصمة لدولتهم يحثون على دراسة علم الفلك والرياضيات . وأدت مدرسة بغداد الفلكية في زمن هارون الرشيد والمأمون اعمالاً مهمة ، وأدمجت مجموعة الارصادات التي تم امرها في المراصد ببغداد ودمشق في كتاب (الزيج المصحح)(١)

ولكي نطلع على الفكر الجغرافي العربي الاسلامي وما توصل اليه العرب في هذا المجال من افكار جديدة وابداعات علمية رصينة ، شهد لهم العالم بأصالتها وأهميتها : سنحاول بحث الموضوع على أساس تقسيمه حسب مجالات بحثها التخصصي والتي هي في المجالات التالية : ـ

١) الرحلات الجغرافية
٢) في مجال رسم الخرائط
٣) الجغرافية الرياضية والفلكية
٤) الجغرافية الوصفية والاقليمية
٥) الملاحة والاساطيل العربية
٦) الجغرافية الطبيعية

أولاً : الرحلات الجغرافية :

تمثل الملاحظة الشخصية اهم مصدر من مصادر المعرفة الجغرافية الى جانب المصادر الاخرى ، كالاعتماد على تراث السلف والحساب الرياضي والرصد الفلكي وتمثلت الملاحظة الشخصية بالرحلات التي قام بها الجغرافيون العرب المسلمون وغيرهم من هواة الرحلات واعضاء الوفود الرسمية ومحترفوا التجارة مع الشرق

(٢) نفيس احمد ، جهود المسلمين في الجغرافية ، ص ١٨٤ .

(١) غوستاف لوبون ، حضارة العرب ، ص ٤٥٦ .

والغرب . فكان لهم الفضل في اتساع معرفة الجغرافيين بارجاء العالم المعروف ، اذا اضيفت الى خريطة العالم المعروف آنذاك جهات لم تكن معروفة من قبل مثل اواسط وشمال آسيا (رحلة ابن فضلان) في وصف بلاد الترك والخزر والروس والصقالبة سنة ٣٠٩ هـ ـ ٣١٠ هـ . وفي غرب افريقيا (رحلة ابن فاطمة) وفي سودان وادي النيل (رحلة ابن سليم الاسواني) في القرن الرابع الهجري .

كذلك تم التعرف على مراحل المحيط الهندي وجزره والساحل الشرقي لافريقيا حتى سفالة الزنج في مقابل جزيرة مدغشقر ورسمها في خرائط . كما اضيف اليها التعرف على الشرق الاقصى (رحلة ابن بطوطة ، ورحلة ابن جبير) . كما امتدت معرفة العرب فشملت الصين وكوريا موريا وجزر اليابان ، وكذلك وصفهم لسواحل اوربا الشمالية الغربية على نحو ما نجد ذلك عند يحيى بن الحكم الغزال .

وقد سلك الرحالة تلك المناطق والتي لم يسبق لها ان سلكها ، وقدموا عنها وصفاً جغرافياً مفصلاً سهل التعرف عليها ورسم خرائط لها . وكانوا دقيقين في وصفهم لتلك المناطق الجغرافية[١] .

وكان التجار يحملون السلع بين الاسواق المختلفة من العالم ويقومون بالرحلات الطويلة في هذا السبيل وحسبنا ان نشير الى الكنوز الوافرة من النقود الاسلامية التي عثر عليها في روسيا وفنلندة والسويد والنرويج وسويسرا والجزر البريطانية والتي ترجع الى الفترة الواقعة بين نهاية القرن الاول وبداية القرن الخامس الهجريين (السابع وبداية الحادي عشر الميلاديين)[٢] .

وكانت الرحلة تمثل الوجه المشرق للجغرافية العربية ، وفي بطونها معين لا ينضب من المعلومات التاريخية والاقتصادية والبشرية والانتروبولوجية والطبوغرافية عن جميع مناطق العالم الاسلامي . حتى ان كبار الجغرافيين المسلمين اعتمد على الرحلة في جمع معلوماتهم او التأكد مما سمعوه او نقلوه . ترى انها كانت تعتبر عندهم بمثابة الدراسة الميدانية في الدراسات الجغرافية في يومنا هذا .

ومن العوامل التي ساعدت على ظهور وتقدم ادب الرحلات الجغرافية عند العرب ما يلي[١] :

---

(١) د . عبد العال الشامي ، جهود الجغرافيين ، مصدر سابق ص ١١ .

(٢) د . زكي محمد حسن ، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى ، بيروت ١٩٨١ ص ٨ .

(١) د . محمد رشيد الفيل ، اثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب ، الكويت ، ايلول ١٩٧٩ ص ٧ ـ ١١ .

مكتبة احمد
مجاور الباب الامامي

١) اتساع اراضي الخلافة الاسلامية ، فقد امتدت الفتوحات من حدود الصين شرقاً حتى المحيط الاطلسي غرباً ثم البحر المتوسط بجميع جزره اضافة الى اسبانيا وفرنسا .

٢) كون الحج احد فرائض الدين الاسلامي ، وعندما يفد المسلمون من كل جهة من جهات العالم كانوا من الطبيعي ان يقضوا اشهراً في سفرهم الى الديار المقدسة مما يدفعهم الى التزود بالمعلومات الجغرافية .

٣) الرحلة في طلب العلم وتأكيد الدين الاسلامي على ذلك .

٤) التجارة ودورها في تشجيع الاسفار . وكان اتساع شبكة طرق المواصلات والامن السائد اثرهما في التشجيع على شد الرحال والطواف في البلدان وكانوا يشعرون في اي بلد يحلون فيه كأنهم في بلدهم .

٥) الاستعداد الفطري لدى العرب النابع من واقع حياتهم في جزيرة العرب .

٦) الاتصال بالثقافات الاجنبية عن طريق الترجمة .

وكان التأليف الجغرافي قد اخذ العديد من الاتجاهات العلمية والتي يمكن اجمالها بما يلي :

آ ـ الاهتمام بأقطار العالم الاسلامي من حيث وصفها اقليمياً كما عند كل من البلخي والاصطخري وابن حوقل والمقدسي والمسعودي والادريسي ، الذين عملوا على تسجيل معلومات جغرافية دقيقة وامينة عن اقطار العالم الاسلامي وخاصة اقطار الوطن العربي تستند على المشاهد الشخصية .

* فلقد طاف اليعقوبي بالجزيرة العربية وبلاد الشام والعراق ومصر والمغرب العربي والاندلس وارمينية وبلاد الهند ، وكتب مؤلفه المشهورة (كتاب البلدان) الذي يعتبر من الكتب المهمة في الجغرافية .

* كما تنقل المسعودي في ارجاء العالم المعروف انذاك فزار ايران والهند وسرنديب ومدغشقر واذربيجان وجرجان والاناضول ، كما تجول في البحر الاحمر والبحر العربي والمحيط الهندي وبحر الصين ، وزار معظم اقطار الوطن العربي ودون معلوماته الجغرافية في موسوعته (مروج الذهب ومعادن الجوهر) الذي اختصر فيه كتابين كبيرين له والذي فرغ من تصنيفه سنة ٣٣٦ هـ ـ ٩٤٧ م . وهو كتاب يجمع بين التاريخ والجغرافية والسياسة والعمران ، فهو يتضمن معظم ضروب العلم في عصره . ويمتاز على غيره من الكتب العربية بكثرة ما فيه من اخبار الامم التي كانت تحيط بالعلم الاسلامي في العصور الوسطى ، وبندرة هذه الاخبار .[١]

---

(١) د . زكي محمد حسن ، مصدر سابق ، ص ٣٦ ـ ٣٧

ويحدد الاصطخري منهجه في كتابه (المسالك والمحالك) فيقول ،
اما بعد فإني ذكرت في كتابي هذا اقاليم الارض على الممالك ، وقصدت فيها بلاد الاسلام بتفصيل مدنها ، وتقسيم ما يعود بالاعمال المجموعة اليها . ولم اقصد الاقاليم السبعة التي عليها قسمة الارض ، بل جعلت كل قطعة افردتها مفردة مصورة تحكي ذلك الاقليم ، ثم ذكرت ما يحيط به من الاماكن ، وما في اضعافه من المدن والبقاع المشهورة والبحار والانهار .(٢)

وقد ساح ابن حوقل في بلدان عديدة من بلدان الاسلام فزار الاندلس وشمال افريقيا والهند وارمينيا وبلاد ما وراء النهر واخرج كتابه (صورة الارض) الذي يذكر في مقدمته « هذا كتاب المسالك والممالك ، والمفارز والمهالك ، وذكر الاقاليم والبلدان على مر الدهور والازمان . وطبائع اهلها وخواص البلاد في نفسها ، وذكر جباياتها وخراجها ومستغلاتها وذكر الانهار الكبار واتصالها بشطوط البحار وما على سواحل البحار من المدن والامصار ، ومسافة ما بين البلدان للقارة والبحار مع ما ينضاف الى ذلك من الحكايات والاخبار والنوادر والآثار . وقد طبع الكتاب مرتين في ليدن ، ففي الطبعة الاولى نشر باسم « المسالك والممالك والمفاوز والمهالك » ثم حسنت هذه الطبعة ونشرت بعنوان « صورة الارض » . وقد قسم ابن حوقل كتابه الى قسمين ،

الاول : شمل على بحث صورة الارض وديار العرب والبحر الاحمر والمغرب والاندلس وصقلية ومصر والشام وبحر الروم والجزيرة والعراق .

اما **القسم الثاني** : فقد شمل على دراسة الاحواز ، وفارس وكرمان والسند وارمينية واذربيجان والران والجبار والديلم وطبرستان وبحر الخزر ومفازة خراسان وسجستان وما وراء النهر .(١)

ب ـ التخصص في قطر واحد كما هو الحال عند الهمداني في وصفه جزيرة العرب والبيروني في الهند ، الذي يعتبر كتابه قمة في الدقة وكتب عنه احد المستشرقين يقول « لا نملك ازاء هذا الا الانحناء في خشوع واحترام امام النتائج العلمية الباهرة التي توصل اليها هذا العالم والتراث العلمي الحافل الذي انتجه في ظروف الزمان الذي عاش فيه .(٢)

---

(١) ابن حوقل ، ابي القاسم بن حوقل الموصلي البغدادي ، كتاب صورة الارض منشورات دار مكتبة الحياة ، بيروت ، ١٩٧٩ ، ص ١٠٠٧

(٢) كراتشكوفسكي ، مصدر سابق ج ١ ، ص ٢٤٥

(٢) الاصطخري ، المسالك والممالك ، ليدن ، ١٩٢٧

جـ - وضع المعجمات الجغرافية التي بدأت في القرن الخامس الهجري مثل كتاب « معجم ما استعجم » للبكري الذي ذكر عنه في مقدمته :

« هذا كتاب معجم ما استعجم ذكرت فيه ان شاء الله جملة ما ورد في الحديث والاخبار والجبال والآثار والمياه والآبار والدارات والحرار منسوبة محددة ومبوبة على حروف المعجم مقيدة . فاني لما رأيت ذلك قد استعجم على الناس اردت ان افصح عنه بان اذكر كل موضع مبين البناء معجم الحروف حتى لا يدرك فيه لبس ولا تحريف »(١)

و (معجم البلدان) لياقوت الحموي الذي انجزه في ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م ، الذي سجل فيه بترتيب ابجدي وصفاً لما استطاع المؤلف ان يعلم شيئاً عنه من المدن والمواضع المختلفة . كما قدم علاوة على ذلك وصفاً مفصلاً لديار الاسلام من الاندلس الى بلاد ما وراء النهر والهند بالحال التي كانت عليه في القرن الثالث عشر الميلادي(٢) (واهمية معجم ياقوت تتجاوز بكثير حدود الاهداف الجغرافية الضيقة . فهو فوق ذلك يمثل آخر انعكاس لتلك الوحدة المثالية للعالم الاسلامي تحت حكم العباسيين ، رغماً من انها كانت في واقع الاحوال اثراً من اثار الماضي) . فهو افضل مصنف من نوعه لمؤلف عربي للعصور الوسطى ، ولتكوين فكرة عن حجمه يكفي ان نذكر ان المتن المطبوع يضم ثلاثة الاف وثمانمائة واربعاً وتسعين صفحة . وقد تضمن جوانب عديدة من الجغرافية في صورها الفلكية والوصفية واللغوية والرحلات ايضاً . كما تنعكس فيه الجغرافية التاريخية الى جانب الدين والحضارة والاثنولوجيا (علم الاجناس والفصائل البشرية) والادب الشعبي (فلكلور) والادب الفني وذلك في القرون الستة الاولى للهجرة ، ويقرب عدد الشواهد الشعرية وحدها فيه ، وذلك بين صغيرها وكبيرها ، من الخمسة الاف استطاع الناشر ان يحقق منها ما يقرب من ثلاثة الاف من المصادر الاخرى(٣)

و - وضع الموسوعات الجغرافية التي بلغت ذروتها في القرن الثامن الهجري (كنهاية الارب) للنويري و (صبح الاعشى) للقلقشندي و (مسالك الابصار) لابن فضل الله العمري الذي كان يتمتع بثقافة عريضة وذوق ادبي

---

(١) البكري ، الاندلسي ابو عبد الله ، معجم بما استعجم ، القاهرة ، ١٩٤٥

(٢) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، بيروت ، صادر ، ١٩٥٥

(٣) كراتشكوفسكي ، مصدر سابق ص ٣٢٥